

خَاتَمَةٌ

obeikandi.com

لقد أدى أعلام العلماء واجبهم في تقدير الفضيل - رحمه الله -
وفيما يلي بعضٌ من كثير:

يذكر صاحب «الجواهر المضية»^(١):

«الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر، أبو علي: الإمام الرباني
التميميُّ اليربوعيُّ الزاهد، أحد صلحاء الدنيا وعبّادها».

وذكر الصيمريُّ أنه أحد من أخذ الفقه عن أبي حنيفة، وروى عنه
الإمام الشافعيُّ، فأخذ عن إمامٍ عظيم، وأخذ عنه إمامٌ عظيم، وهو
إمامٌ عظيمٌ، نفعنا الله بهم.. آمين.

وروى له إمامان عظيمان: البخاري، ومسلم.

وروى أبو وهب محمد بن مزاحم عن ابن المبارك:

«وأما أوزعُ النَّاسِ ففضيلُ بنُ عياضٍ».

وقال الهيثم بن جميل، عن شريك:

«لَمْ يَزَلْ لِكُلِّ قَوْمٍ حُجَّةٌ فِي زَمَانِهِمْ، وَإِنَّ فَضِيلَ بْنَ عِيَاضٍ حُجَّةٌ

لَأَهْلِ زَمَانِهِ».

وقال بشر بن الحارث:

«عَشْرَةٌ كَانُوا يَأْكُلُونَ الْحَلَالَ، لَا يَدْخُلُ بَطُونَهُمْ غَيْرُهُ، وَلَوْ اسْتَقَوْا

الْتِرَابَ، فَذَكَرَهُ فِيهِمْ».

(١) ج١ ص ٤٠٩.

ويقول صاحب « الكواكب الدرية » عنه :

« التَّمِيمِيُّ، الْخُرَّاسَانِيُّ، شَيْخُ الْحَرَمِ ، وَكَانَ إِمَامًا رَبَّانِيًّا صَمَدَانِيًّا قَانِتًا زَاهِدًا عَابِدًا، عَظِيمَ الشَّانِ، شَدِيدَ الْخَوْفِ، دَائِمَ الْفِكْرِ . »

ويقول عنه ابن سعد :

« كَانَ نَبِيلاً، فَاضِلاً، عَابِداً، وَرِعًا »

أما صاحب «ميزان الاعتدال»^(١) فإنه يقول عنه :

« فَضَيْلُ بْنُ عِيَّاضِ الزَّاهِدِ، شَيْخُ الْحَرَمِ، وَأَحَدُ الْأَنْبَاءِ، مُجْمَعٌ عَلَى ثِقَتِهِ وَجَلَالَتِهِ، فَالْفُضَيْلُ مِنْ مَشَايخِ الْإِسْلَامِ . »

وقال الذهبي وغيره :

« كَانَ سَيِّدًا، عَابِداً، وَرِعًا، زَاهِداً ، إِمَامًا رَبَّانِيًّا، عَالِماً فَقِيهاً، وَنَاهِكًا بِمَنْ يَقُولُ ابْنُ الْمُبَارَكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيهِ: مَا بَقِيَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَفْضَلُ مِنْهُ . »

ويقول عنه صاحب «تقريب التهذيب»^(٢) :

« فَضَيْلُ بْنُ عِيَّاضِ بْنِ مَسْعُودِ التَّمِيمِيِّ، أَبُو عَلِيٍّ، الزَّاهِدُ، الْمَشْهُورُ، أَصْلُهُ مِنْ خُرَّاسَانَ، وَسَكَنَ مَكَّةَ، ثِقَةٌ عَابِدٌ إِمَامٌ، مَاتَ سَنَةَ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَمِائَةً . »

(١) ميزان الاعتدال ونقد الرجال للذهبي ج ٢ ص ٣٣٤ .

(٢) تقريب التهذيب ج ٢ ص ١١٣ .

ويقول عنه ابن كثير فى «البداية والنهاية»:

«وُلِدَ بِخُرَّاسَانَ، بِكُورَةِ دَيْنُورَ، وَقَدِمَ الْكُوفَةَ وَهُوَ كَبِيرٌ، فَسَمِعَ بِهَا الْأَعْمَشَ وَمَنْصُورَ بْنَ الْمَعْتَمِرِ، وَعِظَاءَ بْنَ السَّائِبِ، وَحُصَيْنَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَغَيْرَهُمْ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى مَكَّةَ فَتَعَبَّدَ بِهَا، وَكَانَ حَسَنَ التَّلَاوَةِ، كَثِيرَ الصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ، وَكَانَ سَيِّدًا جَلِيلًا ثِقَةً مِنْ أُمَّةِ الرَّوَايَةِ» (١).

والذى نحب أن نقوله - بعد هذا - هو أن حياة الفضيل إنما هى شعاع من نور يبدد الكثير من الشبهات الزائفة التى انتشرت هنا وهناك حول التصوف الإسلامى .

لقد كان الفضيل من أوائل الصوفية، لقد عاش فى القرن الثانى الهجرى، وكان عربياً من قبيلة تميم، وكان عالماً من كبار علماء المسلمين، وكان يعيش من كسب يده .

إن حياته تكذب هؤلاء الذى يحاولون - فى تَعَسُّفٍ وفى زيفٍ - أن يجعلوا مصدر التصوف يونانياً:

أفلاطونية أفلاطون، أو أفلاطونية أفلوطين . . لم تكن هذه أو تلك قد ظهرت فى العصر الذى عاش فيه، ولم يعرف الفضيل هذه

(١) البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٩٨ .

أو تلك، ولم يكن يدور بخلده أن يستمد التوجيه من أفلاطون
أو أفلوطين .

وحياة الفضيل تكذب هؤلاء الذين يقولون: إن مصدرَ التصوف
المسيحية، فقد كان الفضيل غارقاً في التراث الإسلامي، في ميراث
محمد ﷺ، في الحديث، وفي القرآن، وفي آثار الرسول ﷺ،
وفي الوحي، ولم يكن بين جنبيه من المسيحية إلا ما ذكره القرآن
عنها، أو ما ذكره الرسول ﷺ، مُفسراً للقرآن، ومُبيناً له، وكان
يقراً - فيما يقرأ -:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن
لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١)

وكان يقرأ:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ آأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ
إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ
كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ
عَلَامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ
وَكَنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَآ دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَلَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ

(١) سورة المائدة : ٧٣ .

وَأنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تَعْلَمُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ
فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾

وكان يقرأ عن ضلال أهل الكتاب وانحرافهم الشيء الكثير . . . كان
يقراً:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ
قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى
يُؤْفَكُونَ ﴾ (٢)

وكان يقرأ هذا النداء الحق الربانى الإلهى الذى لم يَسْتَجِبْ له
اليهود ولا النصارى، وهو حق واضح:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ
وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا
فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٣)

إن المسلمين كانوا يرون، فى عهد الفضيل - من خلال القرآن -
هذا الضلال الذى انغمس فيه أهل الكتاب، ويرون أنهم أخطأوا الحق
وأنه ما دام الأساس الذى تقوم المسيحية عليه - إذ ذاك - باطلاً، فإن

(١) سورة المائدة : ١١٦ - ١١٨ .

(٢) سورة التوبة : ٣٠ .

(٣) سورة آل عمران : ٦٤ .

كل ما بينى عليه فهو باطل مثله، ولا يتأتى - إذن - أن يكون القرب من الله - وهو التصوف - قائماً على أساس باطل. والغريب أنه مع وضوح موقف المسلمين العام من المسيحية وأنها باطلة، وأن الله يعبر عن بطلانها بأساليب فى غاية القوة، منها قوله تعالى:

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْفًا إِذَا ۗ (٨٨) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۗ (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۗ (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۗ (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۗ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۗ (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ۗ (٩٥) ﴾ (١).

ورغم هذا فإنهم لا يتورعون عن اتهام الصوفية بالأخذ عن المسيحية.

إن الصوفية ما كانوا يستمدون حياتهم - لا، ولا قلامه ظفر - من باطل؛ لأنهم على يقين من أنه لا يمكن الوصول إلى الله إلا عن طريق الحق.

وحياة الفضيل تكذب هؤلاء الذين يقولون: إن نشأة التصوف إنما هى نشأة فارسية، وإن التصوف لا يتناسب مع الفطرة العربية، والذي يقول ذلك هم المستشرقون.

(١) سورة مريم : ٨٨ - ٩٥ .

لقد كان الفضيل عربياً خالصاً وكان من أئمة الصوفية .
وحياة الفضيل تكذب هؤلاء الذين يريدون أن يقرنوا بين التصوف
والجهل ، فقد كان الفضيل قمة في العلم .

وهي تكذب أيضاً هؤلاء الذين يزعمون أن بين التصوف والشريعة
سوء تفاهم ، بل إن حياة الفضيل هي عبارة عن سلوك ملتزم
للشريعة ، وقد بينا ذلك من قبل . . إن حياته إنما هي تحقيق لقوله
تعالى :

﴿ وَمَنْ يَحْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

وهي تحقيق واتباع لقوله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٢) .

رحمه الله رحمة واسعة .

وصلَّى الله على سيدنا محمد، في البداية والنهاية، وفي كل نفسٍ
ولمحةٍ إلى يوم الدين .

(١) سورة آل عمران : ١٠١ .

(٢) سورة الأحزاب : ٢١ .

obeikandi.com

مراجع الكتاب

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - صحيح البخارى.
- ٣ - صحيح مسلم.
- ٤ - المستدرک للحاکم النيسابورى.
- ٥ - صحيح ابن حبان.
- ٦ - صحيح ابن خزيمة.
- ٧ - سنن ابن ماجه.
- ٨ - سنن الترمذى.
- ٩ - سنن الدارقطنى.
- ١٠ - سنن النسائى.
- ١١ - السنن الكبرى للبيهقى.
- ١٢ - مسند البزار .
- ١٣ - البداية والنهاية لابن كثير.
- ١٤ - صفة الصفوة لابن الجوزى.
- ١٥ - الطبقات الكبرى لابن سعد.
- ١٦ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبى نعيم.
- ١٧ - ميزان الاعتدال ونقد الرجال للذهبى.

- ١٨ - تهذيب الأسماء واللغات للنوى .
١٩ - تقريب التهذيب لابن حجر العسقلانى .
٢٠ - تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى .
٢١ - الجواهر المضيئة لعبد القادر القرشى .
٢٢ - الطبقات للإمام الشعرانى .
٢٣ - الكواكب الدرية للمناوى .
